

الفصل الرابع

ظهور المسيحية : يسوع وتلاميذه

تتيح لنا دراسة مخطوطات قمران ، وكذلك شهادات المؤرخين بصدد الجماعات الدينية - الاجتماعية في فلسطين ، وآمالها المسيانية والآخوية ، تتيح لنا أن نشكل تصوراً عن الوضع الاجتماعي - السياسي والروحي في تلك البلاد التي كانت أخذت تبرز فيها تعاليم جديدة ، حتى الآن داخل إطار اليهودية ، بيد أنه كان مقدراً لها أن تصير إلى ديانة عالمية جبارة. ولكن من الصعب أن تقدم وصفاً دقيقاً لعمل مؤسس تلك التعاليم وأتباعه الأوائل ، أولاً وقبل كل شيء بسبب طابع المصادر وأغراضها وتسلسلها التاريخي. فثمة معلومات عن الخطوات الأولى للمسيحية يتضمنها مختلف المؤلفات: الأناجيل (ومنها أناجيل لا تنتمي إلى مجموعة إنجيل العهد الجديد) ، والرسائل التي كتبها الحواريون أو كتبت بأسمائهم ، وأعمال الرسل (تلك التي تدرج في الإنجيل الرسمي ، وتلك التي لم تعترف بها الكنيسة) ، والرؤيا. وفي القرن ٢م جمعت مجموعات من المؤمنين جزءاً من تلك الكتابات في إنجيل العهد الجديد الذي أقر فيما بعد بصفته كتاباً مقدساً لدى الكنيسة المسيحية التي رفضت الاعتراف بالكتب الأخرى كتباً مقدسة. ولكن هذه المؤلفات كلها كانت قد أنشأتها شتى الطوائف المسيحية بعد عقود من صلب المسيح: على امتداد ما يقارب الخمسين عاماً كانت المسيحية تنتشر بفضل المواعظ والروايات الشفهية عن يسوع. أما يسوع نفسه فلم يكتب أي شيء ، بل لم يوص بضرورة تدوين مواعظه أو سيرة حياته. فبالنسبة له ولأتباعه الأوائل ، كان النص التوراتي: الشريعة والأنبياء ، هو الكتاب المقدس الوحيد. ضف إلى هذا أن الجيل الأول من المسيحيين كان يؤمن بأن نهاية العالم وشيكة ، ولذلك لا جدوى من التدوين ، وفي

يادئ الأمر لم يكن لكلمة «إنجيل»: البشارة المباركة، مغزى العمل المكتوب (انظر على سبيل المثال رسالة بولس إلى أهل غلاطيا: «الإنجيل الذي بُشر به»).. وعلاوة إلى هذا ينبغي أن نأخذ بالحسبان أن المدونات المسيحية لم تكن تسعى إلى استعادة سيرة حياة يسوع، بل إلى تحقيق غايات تعليمية ودينية. وتكمن صعوبة تحليل مثل هذا النوع من المصادر في أن التباين فيما بينها أو صمتها عن هذه الحقائق أو تلك، لا يعني أن كاتبها لم يكن على علم بالواقعات المعنية، بل يعني أنه انتقى منها ما رأى أنه ذو أهمية، وأن هذا هو ما يريد القارئ معرفته أو المتلقي سماعه (ربما كانوا يقرؤون الأناجيل في اجتماعاتهم العامة). وفي غضون ذلك لم يكن المؤلف يفصح دوماً عن مقاصده بطريقة واحدة. فقد كان مثل هذا الأمر يرتبط بقدراته الأدبية، ومعرفته بالوضع الذي كان يصفه، وبخصائص العرض الذي جاء في بعض الحالات حاملاً تناقضات لم تكن ناتجة عن قلة اطلاع المؤلف بل عن ضعف قدرته على التعبير بدقة. وعدا عن الانتقائية المقصودة وتأويل كل مؤلف لهذه الأحداث أو تلك، فإن هناك أيضاً السمات السيكلوجية لكل ذاكرة وتحول التقليد الشفهي إلى تقليد مدون. فذاكرة الإنسان لا تكتفي بمجرد استعادة الحدث، بل تعيد صنعه بصورة خلاقة. ولذلك قد يؤدي التناقل المتعدد للواقعة إلى فقدانها واقعيتها، أما الوهم فإنه على الضد، قد يتحول إلى حقيقة. ولا يتغير التقليد الشفهي، ولكن تحويله إلى تقليد مدون قد يحدث خللاً في تتابع العرض، ومع ذلك فإن هذا لا يحدث عندما يجري الحديث عن مؤلفات تاريخية بل عن مؤلفات دينية. ومن البين أن التقليد الديني (وهو التقليد الأكثر محافظة)، هو الذي حمل إلينا أهم أحداث حياة مؤسس المسيحية وتعاليمه، ولكن زمناً لا بأس به مر قبل أن يتحول هذا التقليد إلى تقليد ميجل بالمعنى الدقيق للكلمة. وقد دارت إبان ذلك الزمن نقاشات ونزاعات بين مختلف فرق المسيحية، كما بين بعض دعااتها.

ومع ذلك فإننا إذ نجمع بين تحليل نص أناجيل العهد الجديد ونص الأناجيل التي لا تقر بها الكنيسة، نحاول أن نستخلص معطيات عن بدء صيرورة المسيحية، وعن أولئك الذين رافقوا بزوغ نبتها الأول. ونستطيع على وجه الخصوص أن نقر دون تردد بصحة الأخبار التي ترقى إلى التقليد المسيحي الأقدم، وهي الأخبار التي تواتر ورودها في المصادر كلها (مثلاً: صلة يسوع المسيح بالجليل والناصرة)، وتتوافق مع الموقف التاريخي العام ولا تحمل مغزى لاهوتياً أو وعظيماً خاصاً.

أما فيما يخص المصادر غير المسيحية، فإن المسألة التي تحظى بالاهتمام الأكبر، هي تلك المتعلقة بشهادة يوسف فلافيوس عن المسيح. ففلافيوس هذا كان الأقرب إلى زمن ظهور يسوع. وكرس في بحثه: «العاديات اليهودية» (النص الإغريقي)، فقرة من الكتاب الثامن عشر للحديث عن يسوع. ولكن أكثر العلماء رأى في كلمات فلافيوس تلك تزويراً أدخله ناسخ مسيحي متأخر على النص الأصلي، لأن المؤرخ سمى يسوع بالمسيح، وتحدث عن قيامته من الأموات كأنها واقعة حقيقية حدثت فعلاً، وهو أمر لا يعقل، لأن فلافيوس كان يهودياً مؤمناً وقريباً من فرقة الفريسيين، عداك عن أن هذا اليهودي الأسير المقيم في قصر الإمبراطور الروماني الذي دمر انتفاضة اليهود، لم يكن قادراً على أن يعترف صراحة بأي مسيا: مسيح الرب. وفي مكان آخر يشير فلافيوس إشارة عابرة إلى إعدام يعقوب أخ يسوع المدعو مسيحاً حرفياً: «الذي يقولون إنه المسيح».

وربما يكون هذا النص المزور قد أدخل على النص الأصلي في أواخر القرن ٣ وأوائل القرن ٤م. فالكاتب المسيحي أوريجينوس (ولد في العام ١٨٥م)، لام يوسف فلافيوس لأنه لم يعترف بيسوع مسيحاً^(١)، ثم اقتبس المؤرخ الكنسي يوسفوس الذي كتب أعماله في القرن ٤م، هذا النص المزور عن فلافيوس. ولذلك ظهرت في الميدان العلمي منذ أوائل القرن ٢٠م. نظرية أكدت أن المزور لم يبن تزويره هذا على فراغ، إنما فقط صحح النص الأصلي الذي كتبه فلافيوس وأضاف إليه بعض تعابير المديح الدينية. ومع ذلك مر زمن طويل دون أن ينجح أحد في استعادة النص الأصلي.

وفي العام ١٩٧١ نشر أحدهم مخطوطاً قرسطوياً كتبه باللغة العربية الأسقف أغابيوس. وقد تضمن هذا البحث (دعي باسم «الحوليات الكونية»، لكنه تطرق أساساً إلى التاريخي المسيحي فقط)، كثرة من النصوص المقتبسة عن مختلف المؤلفين الذين كتبوا عن يسوع، بما في ذلك النص المنسوب إلى يوسف فلافيوس، وقد أشار الأسقف صراحة إلى فلافيوس هذا بصفته مؤلف النص المذكور. لكن مقارنة النص الإغريقي بالنص العربي تفيد بأن أغابيوس قد استخدم مخطوطاً ما غير المخطوط الذي وصل إلينا، وربما كان المخطوط الغائب هو الذي نقل المغزى الأصل لكلمات يوسف فلافيوس. وهاكم مقارنة النصين:

١- «ضد سيلس» و«تعليقات على إنجيل متى».

الترجمة الإغريقية

ترجمة نص أغاباوس

في ذلك الزمان عاش يسوع، إنسان حكيم، إذا كان يمكن في الأصل أن ندعوه إنساناً، فقد أتى أموراً غير عادية، وكان معلماً للناس الذين تقبلوا الحقيقة بفرح. لقد جذب إليه كثيراً من اليهود والهلينيين (بمعنى الوثنيين). لقد كان هو المسيح، وحينما حكم عليه بيلاطس بالصلب بناء على اتهام شيوخنا، بقي الذين أحبوهم منذ البداية، مخلصين له. وفي اليوم الثالث ظهر لهم حياً، لأن أنبياء الرب تنبؤوا بهذا وبكثير من المعجزات الأخرى عنه.

في هذا الزمان عاش إنسان حكيم دعوه يسوع، وكان عيشه مستقيماً واشتهر بالعفة. وصار كثير من اليهود إلى تلاميذ له. وحكم عليه بيلاطس بالصلب والموت. لكن أولئك الذين صاروا تلاميذه، لم يتخلوا عنه. وقد أعلن هؤلاء أنه ظهر لهم حياً في اليوم الثالث بعد صلبه. ويفترضون أنه كان هو عينه المسيح الذي تنبأ الأنبياء بمعجزاته.

من الواضح أن يد الناسخ لم تمس نص أغاباوس، وتظهر مقارنة التصين أن المسيحي الغيور لم يفعل شيئاً في النص الإغريقي سوى أنه «دققه، قومه»، ولم يخلق كلمات على لسان المؤرخ الذي سعى إلى أن يكون موضوعياً. فبالنسبة إليه أن يسوع هو شخص عفيف تقي آمن أتباعه به مسيحاً مخلصاً، ولا شك في أن يسوع بشر بالحقيقة. أما بالنسبة لمسيحيي بداية القرن ٤م، فقد كان يسوع ابن الإله، تجسداً لكلمة الإله (وربما كان هذا الناسخ لا يعترف بالطبيعة البشرية ليسوع أصلاً). ومن الواضح كذلك أن ما ورد بالنسبة لشيوخ اليهود مزور بدوره. وقد يكون أغاباوس قد ترجم المقطع من «العاديات اليهودية» إلى اللغة العربية ملتزماً بدقة النص الذي ترجمه دون أن يضيف أي كلمة أخرى إليه.

وثمة في حويلات تاسيت ذكر للمسيحيين الذين كانوا في روما زمن نيرون. وقد اتخذ المؤلف منهم موقفاً سلبياً جداً: «... أولئك الذين أكسبتهم خستهم ودناءاتهم كرهاً عاماً، إنهم أولئك الذين يدعوهم الحشد مسيحيين. وكان القاضي بيلاطس قد أعدم في عهد الإمبراطور طيباريوس المسيح الذي تنتمي تسميتهم إليه». وكتب المؤرخ الروماني سفيثونيوس في سيرة حياة الإمبراطور كلاوديوس، أن هذا الأخير طرد اليهود المولعين بالمسيح من روما. ولا شك في أن هذه المعلومات مثلها معلومات مؤرخي القرن ٢م الرومان الآخرين، لها أهميتها بالنسبة لدراسة عصر انتشار المسيحية في أمداء الإمبراطورية الرومانية، إلا أنها لا تعطي سوى القلة القليلة عن عصر بداية التعاليم الجديدة، ولذلك سوف نتوقف عندها أثناء روايتنا لقصة حياة المسيحيين بعد صلب يسوع.

وهناك أيضاً الرواية اليهودية لقصة ظهور المسيحية، وكان قد عرضها كاتب القرن ٢م، سيلس، الخصم اللدود للمسيحية، في مؤلفه: «الكلمة الصادقة»، لكن هذا المؤلف لم يصل إلينا كاملاً، إلا أن أوريجينوس ساق منه نصوصاً مسهبة في مؤلفه: «ضد سيلس»^(١). وحسب رواية سيلس التي استندت إلى معطيات اليهود، أن يسوع كان ابناً للغزاة الفقيرة ماريا، التي كان زوجها نجاراً، ولكنها لم تتجب ابنها يسوع منه، بل من جندي روماني فار من الخدمة يدعى بانتر. وكان يسوع يعمل عاملاً مياوماً في مصر، فتعلم فيها فنون الشعوذة، ولما عاد إلى فلسطين أعلن نفسه إلهاً. وبعد أن انتقى لنفسه أكثر الناس «بؤساً وإحباطاً»، شرع يجوب في شتى أرجاء فلسطين. ولما كشف اليهود حقيقة أمره، حكموا عليه بالموت فتشرد متخفياً إلى أن ألقى القبض عليه بخيانة من تلاميذه وبعد أن نفذ به حكم الإعدام سرق تلاميذه. جثمانه. وثمة في التلمود أيضاً معطيات عن يسوع تتوافق من حيث الأساس مع ما ورد عند سيلس: يسوع بن باندير كان ابن الندافة ماريا وباندير، عشيقها، وقد تعلم هذا اليسوع (يزعمون أنه يدعى هناك أيضاً باسم بن ستاد، لكن ربما كان الحديث يجري عن شخصين مختلفين)، السحر في مصر فرجموه بالحجارة وعلقوه عشية الفصح.

إن تعاملنا مع هذا النوع من المعلومات ينبغي أن يتميز بالحذر الشديد، لأنها تمثل إلى حد كبير تقليداً مسيحياً مشوهاً مقلوباً رأساً على عقب أضيف إليه كم من التفاصيل المتحيزة (كما على سبيل المثال، الإدعاء بأن يسوع رجم بالحجارة بناء على قرار اليهود). ومن الواضح أن الرواية التي ساقها سيلس تهدف في هذا السياق إلى إثبات مناهضة اليهود المؤمنين لتعاليم يسوع (فالرجم بالحجارة يتطلب مشاركة كثرة من الناس)، وأن إعدامه كان إعداماً يهودياً خالصاً، وأنه لم يصلب حياً وفق التقليد الروماني، بل علق على الخشبة بعد موته كما كان معمولاً به لدى اليهود. وبذا لم يكن لبيلاطس البنطي أي دور في موت يسوع. واستبدلت في نص سيلس أيضاً بخيانة تلميذ واحد هو يهوذا الإسخريوطي، خيانة التلاميذ كلهم لمعلمهم يسوع. وبكلمات أخرى، لقد عمل سيلس واليهود الذين كانوا مصدر معلوماته، على تقديم الحركة التي ارتبطت باسم يسوع، على أنها فعلاً أتته جماعة صغيرة من الناس الذين لم يكن عدد أنصارهم كبيراً، ضف إلى هذا أنهم كانوا أفراداً فارين من وجه العدالة. والغرض عينه كان يكمن خلف ذلك التفصيل المعيشي الصغير: مهنة والده يسوع. فالمرأة التي كانت تعمل لتحصيل لقمة العيش، لم تكن تحظى بكبير احترام في العالم القديم، أما الغزاة والندافة فلم يكن يحظين بأي احترام قط. ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نتكر أن

١- انظر: أ. ب. رابينوفيتش. المصادر الأولى في تاريخ المسيحية المبكرة. موسكو، ١٩٩٠.

التنويه إلى مهنتي ماريا هاتين، أمر يعكس واقع الأشياء: لقد كان ينبغي أن يكون الإنتاج الحرفي الصغير موجوداً في بلدة صغيرة كالناصرية، حسب رأي كثير من الباحثين في الوضع الاقتصادي الفلسطيني، وبالكاد كان بمقدور امرأة أن تحصل على لقمة عيشها من عمل أكثر كفاءة. ويتضح من إنجيل مرقس أن ماريا كانت امرأة وحيدة عندما كان نشاط يسوع في أوجه، إذ جاء هناك أنه لما جاء يسوع إلى الناصرة مع تلاميذه، قال سكان البلدة: «أليس هذا هو النجار ابن مريم أخو يعقوب، ويوشع، ويهوذا، وسمعان؟». ونحن يجب ألا نفعل الإشارة إلى أن سيلس على الرغم من عدائه الشديد للمسيحية، إلا أنه لم ينكر حقيقة نشاط يسوع، وصدامه مع قيادة كهنة معبد أورشليم.



في القرن الأول الميلادي كانت الناصرة قرية يعيش سكانها المائتا نسمة على زراعة الكرمة. تصميم ونحن استناداً إلى كل المعطيات الممكنة المستقاة من شتى المصادر المسيحية منها وغير المسيحية، يمكننا أن نحاول رسم صورة محتملة لبروز يسوع وسمات تعاليمه. فالوضع الاجتماعي والديني في فلسطين على وجه العموم، كان قد مهد سبيل ظهور جماعة دينية أخرى داخل إطار الدين اليهودي. وقد كان يوحنا الذي أخبرنا يوسف فلافيوس عنه، والذي دعاه الإنجيل باسم يوحنا المعمدان، واحداً من الدعاة الذين أدوا دوراً في صيرورة هذه المجموعة. فقد بدأ المعمدان دعوته في برية اليهودية؛ وحسب إنجيل لوقا، أن يوحنا المعمدان أقام في البرية «حتى يوم ظهوره لإسرائيل». ويرى أكثر الباحثين أن يوحنا هذا كان مرتبطاً بطائفة قمران. ولكن خلافاً للقمرانيين تحولت بشارته إلى بشارة علنية، وقد يكون قاسم القمرانيين كثيراً

من أفكارهم، إلا أنه تبني موقفاً رافضاً لانغلاق الطائفة، فتركها (أو ربما طرد منها)، وحسب أناجيل العهد الجديد أن يوحنا المعمدان بشر بقرب مجيء المسيا الذي سيطرد الشر من الأرض: «فأسه عند أصل الشجرة، وكل شجرة لا تعطي ثمرأ تقطع وتلقى في النار.. مذراته بيده وهو ينظف بيده ويجمع قمحه إلى مخزنه، أما التبن فيحرق بنار لا تنطفئ» (متى). ووصف الفريسيين «بأبناء الضغينة». وما يثير الاهتمام أن النص عينه من سفر أشعيا يرد في ميثاق طائفة قمران («اعدوا طريق يهوه في البرية، مهدوا درب الرب إلها في السهوب»)، وفي إنجيل متى حيث ينطق به يوحنا: «... صوت صارخ في البرية: أعدوا طريق الرب، مهدوا سبيله» (متى).

لقد عاش يوحنا حياة زهد وتقشف. وتقول أناجيل العهد الجديد، إنه كان يرتدي رداء من وبر الجمال وحزاماً جلدياً، وكان يقات الجراد والعسل البري (متى؛ مرقس). والحقيقة أن الإنجيل الذي يدعى إنجيل البيونيتيين (= الفقراء)، وهو الإنجيل الذي وضعه اليهود المسيحيون في زمن مبكر جداً، يقول: إن يوحنا كان يقات بالعسل البري الذي يشبه طعمه طعم المن، وأرغفة بالسمن^(١). وليست مقارنة ما كان يقات به يوحنا بالمن، وهو القوت الذي تقول الخرافة التوراتية إن الإله أرسله إلى «بني إسرائيل» من السماء عندما كانوا يجوبون الصحراء (خروج)، ليست سوى مقارنة خفية بالإنعام الإلهي، وكأنني بهم يؤكدون بذلك على اصطفاء يوحنا.

لقد دعا يوحنا الشعب إلى أن يتوب ويتطهر من آثامه قبيل مجيء المسيا. وكان يجب أن ينعكس مثل ذلك التطهر في الاغتسال الطقوسي (= المعمودية)، في نهر الأردن. وكتب يوسف فلافيوس يقول، إن يوحنا كان يعظ الناس بأن يعيشوا حياة البر والعفة، ودعاهم إلى المعمودية. فهذه الأخيرة تكرر الجسد في الطهارة بعد تنقية الروح بفضل فعل الندامة. وأخذ الناس يتوافدون على يوحنا جماعات، لأن «تعاليمه سمت بأرواحهم». فخلافاً للقمرانيين الذين كانوا يؤدون طقس الاغتسال بانتظام، دعا يوحنا الذي كان متقياً من أن مجيء المسيا بات وشيكاً، إلى التطهر مرة واحدة قبيل ظهوره وحلول نهاية العالم.

لقد كان مصير المعمدان مأساوياً. فوفق رواية يوسف فلافيوس أن هيرودوس أنطيا حاكم الجليل باسم والده هيرودوس الكبير، بات قلقاً من أن يقضي تأثير يوحنا الكبير على

١- من الواضح أن العسل البري الذي له طعم المن لم يكن عسل نحل، إنما عصير شجري ما. ولكلمتي جراد ورغيف لفظ متشابه في اللغة الإغريقية. وعلى أي حال يصعب علينا أن نعرف على وجه اليقين ما الذي كان يأكله المعمدان في البرية.

الحشود، إلى ما لا تحمد عقباه. ولذلك أمر بالقبض عليه وإيداعه السجن ثم إعدامه. ووفق روايات العهد الجديد، أن يوحنا ناهض هيرودوس انتيبا هذا نفسه وزوجته هيروديا، إذ اتهمهما بسفاح القربى: لقد سلب هيرودوس أخاه زوجته هيروديا وتزوجها. وثمة خرافة تزعم أن هيرودوس أقام زمناً لا يحسم أمره على إعدام النبي السجين. ولكن في أثناء إحدى ولائمه رقصت سالومي ابنة هيروديا أمام زوج أمها رقصة أعجب هيرودوس بها إعجاباً شديداً، فوعد الفتاة بأن يلبي لها أي طلب تطلبه. عندئذٍ طلبت سالومي بتحريض من أمها هيروديا، رأس يوحنا المعمدان، فوجد هيرودوس نفسه مرغماً على قتله. وقد كتب متى في إنجيله يقول: «وجاؤوا بالرأس على صينية وقدموها للفتاة، فحملتها إلى أمها». ولم يكن يوحنا وحيداً، فقد كان حوله مجموعة من التلاميذ (أشار إليهم متى في إنجيله)، الذين واصلوا تعاليمه ودعوا إلى التقشف. وكان هؤلاء هم من دفن جثمان يوحنا القاتل.

وحسب الأناجيل كلها، القانونية منها وغير القانونية، أن يسوع الجليلي كان واحداً ممن تقبلوا طقس المعمودية في نهر الأردن. ونحن لا نعرف إلا قليلاً عن حياة يسوع (= يشوع) قبل معموديته، فالروايات التي نقلتها الأناجيل التي تدعى «أناجيل الطفولة»، لا يمكن الركون إليها (لم توضع قبل النصف الثاني من القرن ٢م)، وينسحب هذا حتى على إشارتها إلى مكان ولادة يسوع وتاريخها. فلم يخبرنا عن مولده سوى إنجيلي متى ولوقا، أما إنجيل مرقس فإنه مثله مثل الأناجيل اليهودية - المسيحية المبكرة، يبدأ روايته من لحظة ظهور يوحنا ومعمودية يسوع على يديه. ومن حق المؤرخين أن يرتابوا في صحة رواية مولد يسوع في بيت لحم زمن الإحصاء الذي أجراه الرومان لسكان فلسطين. فالسلطات كانت تجري الإحصاء من وقت لآخر بهدف ضبط جباية الضرائب. ولذلك كان ينبغي أن يكون تسجيل الشخص في مكان إقامته. ولا ريب في أن المؤرخ المعاصر ج. كروسان محق في قوله، إن الذهاب إلى المكان الذي كان يعيش فيه الأسلاف، ثم العودة إلى مكان الإقامة، كان يمكن أن يثير أثناء تحرك السكان، لا سيما في القرن ١م، «كابوساً بيروقراطياً» رهيباً^(١). لقد كانت مدينة بيت لحم مرتبطة بذكرى الملك داود الذي كان ينبغي حسب النبوءة. أن يخرج المسيا من سلالته، ويولد في بيت لحم (لقد ساق متى نبوءة النبي ميخا بهذا الصدد: «وأنت يا بيت لحم التي في أرض يهوذا، لست أقل شأنًا من أرض يهوذا الأخرى؛ فمنك يخرج الراعي الذي يرعى شعبي: إسرائيل - متى). ولذلك ليس غريباً أن دعا الإنجيليون المكان الذي ولد فيه يسوع، بيت لحم لا سيما أن معلوماتهم عن حياته قبل معموديته، كانت قليلة. ولكن الرواية المتداولة

1- Crossan J.D Jesus Revolutoronary Biography San Francicko, 1995, p. 20.

عن الناصرة حيث كانت تعيش عائلة يسوع (وحيث ربما يكون هو نفسه قد ولد)، هي رواية لا تثير لدينا شكوكاً: لقد كانت تلك بلدة صغيرة لا أهمية لها، متسعة إلى درجة أن النص التوراتي لم يأت على ذكرها البتة. ويرى بعض المؤرخين أن الناصرة لم يكن لها وجود أصلاً في القرن الميلادي الأول. ولكن أعمال التنقيب الأثاري كشفت عن آثار مستوطنة في المكان الذي قامت عليه الناصرة، يرجع تاريخها إلى القرون الأخيرة السابقة على التاريخ الميلادي. كما عثر أيضاً على نقش أحصيت فيه الأماكن التي توزع عليها الكهنة بعد دمار أورشليم على يد الرومان في العام ٧٠م. وقد ورد اسم الناصرة بين تلك الأماكن. ولم تكن للناصرة أهمية تذكر في ميدان التعاليم الدينية، ولذلك فإن الرواية التي رويت عن يسوع الناصري، هي رواية صحيحة. فوفق التقليد الراسخ الذي كرسته الأناجيل ومؤلفات المناصرين (بخاصة كاتب القرن ٢م يوستين) أن يسوع كان ينتمي إلى عائلة نجار، وربما عمل في هذه المهنة في سني فتوته (لقد جاء في إنجيل مرقس: «أليس هذا هو النجار»). وحسب «دفاع» يوستين أن يسوع كان يصنع أدوات زراعية، أي أنه كان من فئة صغار الحرفيين (أو ابن واحد منهم)، المرتبطين بالإنتاج القروي. وكقاعدة كان مثل هؤلاء الحرفيين في الأصل فلاحين أفلسوا، وفي الجليل على وجه الخصوص، كانت أعدادهم كثيرة بسبب نهوض حركة بناء المدن التي بلغت ذروتها في عهد هيرودوس أنتيبا. ومن المعروف أن صغار الحرفيين كانوا يشكلون في أكثر مقاطعات الإمبراطورية الرومانية شريحة دنيا متوسطة بين الفلاحين والحثالة



القارب الجليلي في القرن الأول الميلادي

البروليتارية. وكانت عائلة يسوع كبيرة بما يكفي، فقد ذكرت الأناجيل بالأسماء، أربعة من أخوته، علاوة إلى أخواته اللواتي لم تذكر أسماءهن. ومن المعروف أن أخاه يعقوب أدى فيما بعد دوراً قيادياً في طائفة أورشليم؛ كما روى يوسفوس القيصري عن

ملاحقة السلطات الرومانية أحفاد أخ يسوع، يهوذا، بسبب انتمائهم إلى المسيحيين. ولكن درجة القرابة بين يسوع وأخوته وأخواته أثارت لدى الكتاب المسيحيين في القرون ٢-٤م،

خلافاً ونقاشات أسفرت عن طرح فرضيات مختلفة ارتبطت بنشوء تبجيل ماريّا ، التي يفترض أن تكون قد حافظت على عذريتها بعد أن ولدت يسوع. ولم تطرح هذه المسألة على بساط البحث قط لدى الإنجيليين الأوائل ، كما لم يكن ثمة وجود وقتذاك لعبادة والدته. وفي إنجيل متى يدعى يسوع بكر ماريّا. وابتداءً من القرن ٢م يظهر يعقوب وباقي أخوته في أناجيل طفولة يسوع وقصة ولادة ماريّا ، أولاداً ليوسف من زواجه الأول؛ كما اتخذ أوريجينوس الموقف عينه. أما الأب الآخر للكنيسة هيرونيموس ، فقد رأى أن الحديث في الأناجيل يجري عن أبناء أعمام يسوع وبناتهم. وتعد هذه الرؤية هي الرؤية السائدة الآن في الكنائس المسيحية الأرثوذكسية. وعلى أي حال فقد نشأ يسوع في عائلة كبيرة ، مع أنه حسب الأناجيل لم يعترف بهم ، أنكرهم عندما بدأ يعظ بتعاليمه. فقد جاء في إنجيلي مرقس ومتى أنه بينما كان يسوع يلقي موعظة دعت «والدته وأخوته»^(١) الواقفون في الخارج ، فأجاب: «... من أمي ، ومن أخوتي؟ ونظر إلى الجالسين حوله وقال: هؤلاء هم أمي وأخوتي» (مرقس: متى). وفي إنجيل الإبيونيّتين يدعو يسوع والدته وأخوته وأخواته تلاميذه. ونحن لا نعرف ما إذا كان يسوع قد تعلم في المدرسة أم لا ، لكن الأمر الأكيد ، هو أنه كان يستمع إلى تلاوات النصوص التوراتية ويعرفها. ومع أن بعض الباحثين يرى أن يسوع كان شخصاً أمياً ، إلا أنه كان يمتلك موهبة فذة في الإلقاء الشفهي وإلهام الآخرين (هذا ما يراه ج. كروسان مثلاً) ، وربما كان في الناصرة ثمة من يعرف قواعد القراءة والكتابة في اللغتين ، اليهودية القديمة والآرامية.

ولا تزال مسألة تاريخ مولد يسوع تنتظر حلاً دقيقاً حاسماً. فالتقليد الذي كرسه إنجيل متى يربط لحظة ميلاده بعهد الملك هيرودوس. ولكن من الثابت أن هيرودوس توفى في العام ٤ق.م. وإذا ما أخذنا بما يقوله التقليد ، فإن يسوع كما يرى كثير من العلماء واللاهوتيين الآن ، ولد في العام ٤ق.م. ولم يستخرج عام ميلاده (وهو العام ٢٧ لحكم الإمبراطور أغسطس) ، إلا في القرن ٦م. على يد الكاهن ديونيسيوس الصغير ، ويبدو أن هذا خطأ في حساباته. أما فيما يتعلق بيوم ميلاده - ٢٥ كانون الأول ، فإنه اليوم الذي كانت تحتفل فيه الإمبراطورية الرومانية بيوم الانقلاب الشمسي الشتوي ، الذي كان مكرساً ليوم ميلاد إله «الشمس الذي لا يقر» (ظهرت عبادة هذا الإله تحت تأثير عبادة ميترا). وابتداءً من القرن ٤م ، بعد أن أقر الإمبراطوري قسطنطين بالمسيحية ديانة معترفاً بها ، أخذ المسيحيون كلهم تقريباً يحتفلون بهذا اليوم بصفته يوم ميلاد المسيح.

١- تجدر الإشارة إلى أنه من غير المحتمل أن تكون والدّة يسوع قد جاءت معها أبناء أعمامه وبناتهم ، وعلى أرجح تقدير أن الانجيليين قصدا إلى أخوة يسوع الأشقاء أو غير الأشقاء.

ويرى الباحثون المعاصرون أن عمادة يسوع في مياه نهر الأردن على يدي يوحنا المعمدان، حقيقة لا ريب فيها، ولكن إذا ما أخذنا بالحسبان التصور القائم عن سحر الكلمة الإلهية (إنجيل يوحنا)، وابن الإله الذي ولد من حبل بلا دنس (إنجيلا متى ولوقا)، فإن المغزى الطقوسي لفعل المعمودية يبدو مبهماً، وما يجدر التنويه به، هو أن يسوع لم يبدأ بشارته وصنع معجزات الشفاء من الأمراض المستعصية إلا بعد لحظة تلقيه المعمودية، وكأنني به أدرك أهمية النعمة الإلهية التي حلت عليه. وقد أعطى أنصاره الأوائل من اليهود، مغزى خاصاً لفعل المعمودية الذي يبرز أن يسوع أعظم من يوحنا، وكما أسسوا رواية (لم يشير يسوع إلى ذلك في أي من الأناجيل المبكرة) تقول، إنه في أثناء معموديته تلقى الإقرار الإلهي الذي جعله أعظم من موسى: لقد حل عليه الروح القدس^(١). وسُمع صوت من السماء يقول: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مرقس). وقد يكون اعتكاف يسوع في البرية بعد المعمودية، رواية أخرى قامت على حدث واقعي: يزعم بعض الباحثين أن يسوع، كما يوحنا من قبل، اطلع هناك على تعاليم القمرايين، وقد يكون خضع لاختباراتهم (للإغواء، كما ورد في الأناجيل). وحسب الروايات الإنجيلية أن يسوع بدأ دعوته في الجليل بعد أن اعتقل هيرودوس أنتيبا يوحنا المعمدان، ولكن الناصرة رفضته، فاستقبلته كفرناحوم الواقعة على ساحل بحيرة جينيسارت، وكذلك فعلت ضواحيها. فقد جمع حوله هناك مجموعة من الأنصار الذين ينتمون أساساً إلى الفئات السكانية الفقيرة. ولكن رواية العهد الجديد تسوق أسماء أقرب أنصاره الاثني عشر بشيء من التباين. وهؤلاء هم: سمعان الصخرة (بطرس)، وأخوه اندراوس، ثم الأخوان يوحنا ويعقوب اللذان لقبا بابني الرعد، يليهما متى، وبرثولماوس، وتوما الذي حمل وفق رواية إنجيل يوحنا، لقب ديدمون (= التوأم، باللغة الإغريقية)، وفيليبوس، ويعقوب بن حلفا، وسمعان الزيلوتي (أو القانوني)، وأخيراً يهوذا الإسخريوطي. وما يثير الاهتمام، هو أن الحواريين حملوا ألقاباً إلى جانب أسمائهم (ربما كان يكمن هنا سبب التباين الذي ظهر في أسمائهم فيما بعد، وينسحب هذا خاصة على الذين لم يعرف عنهم في التاريخ التالي شيء تقريباً). أما فيما يتعلق باسم العلم الإغريقي الشائع، فيليب، فقد حمله واحد من أبناء الملك هيرودوس (قد يكون فيليبوس الرسول حمل اسمه هذا تيمناً باسم ابن الملك ولم يحمل في الأصل أي اسم يهودي. أما اسم توما فهو حسب ي. ميشيرسكايا التي درست أعمال توما، اسم من أصل جزيري مشتق من الفعل «ينقسم»^(٢)، ومن حيث جوهر الأمر، كان لقب

١- «ولوقت إذ صعد من الماء رأى السماوات قد انفتحت والروح مثل حمامة قد نزل واستقر عليه» (مرقس ١ - ١٠).

٢- ميشيرسكايا، ي. الأعمال المنحولة للحواريين - موسكو، ١٩٩٦، ص ٦٩.

ديدمون: التوأم الذي حمله توما تفسيراً إغريقياً لمعنى اسمه). وتشهد حقيقة الخلط بين الاسم واللقب على أن هؤلاء الأشخاص لم يكونوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً باليهودية الأصولية: ونحن لا نعرف مستوى معرفة كل منهم باللغة الإغريقية (حسب الرواية الكنسية أن بطرس كان دائم الحاجة لمترجم)، ولكن الإحساس بالتخالط الاثنى الثقافي بين السكان، لا سيما في المدن، وغياب التقاليد العائلية العشيرية الصارمة، بخاصة في ميدان أسماء العلم لدى الذين وضعوا أنفسهم في مواجهة عليّة المجتمع اليهودي، قد أديا إلى ظهور أسماء ذات أصول شتى، وظهور ألقاب إغريقية. ووفق الأنجيل أن يسوع نفسه قد أطلق على بعضهم مثل هذه الألقاب، وكأنّي به قد حدد بذلك منزلة هؤلاء في حركته. والحقيقة أن إنجيل اليهود يقول ببساطة، إن لقب سمعان، هو بطرس. ونحن يجب ألا نرى في حالة الأسماء والألقاب هذه مجرد حالة طارئة بالنسبة لمنطقة الجليل الأدنى: لم يعتق سكانها الديانة اليهودية إلا في زمن متقدم (فقد دعاها سفر أشعيا بالبلاد «الوثنية»)، وكان اليهود الأقحاح يحتقرون الجليليين الذين لم يعانون فقط من نير الاستعمار الروماني بل من عبء الضغط الروحي الصادر عن كهنوت معبد اورشليم والمشرعين.

أما التركيبة الاجتماعية لتلاميذ يسوع، فنحن لا نستطيع تحديدها إلا بقدر ضئيل من



بحيرة جينيسارات (بحر الجليل)

الصحة. فقد كانت تنتشر على ضفاف بحيرة جينيسارات (= بحر الجليل) قرى صيادي الأسماك، وكانت مجدل هي مركز تلك القرى. وبين الحواريين دعي سمّاكاً كل من بطرس واندراوس، وكذلك يوحنا ويعقوب: دعاهما يسوع إذ رأهما يصيدان الأسماك من البحيرة. بيد أن

بطرس لم يكن يقيم في قرية من قرى السمّاكين، بل في كفرناحوم، حيث كان له فيها منزل مرت أنجيل العهد الجديد والأنجيل اليهودية المسيحية على ذكره مروراً عابراً (لم يكن لمثل هذه الواقعة أي مغزى مقدس بالنسبة للإنجيليين)، وكانت عائلة بطرس تقيم هناك في ذلك المنزل. فبطرس كان متزوجاً، ومع أننا لا نعرف أي شيء عن زوجته، إلا أنه في مجمل

الأحوال كانت له حماة أبرأها يسوع مرة من مرض ألم بها (لهذا فقط ورد ذكرها في إنجيل مرقس؛ وإنجيل لوقا). وحسب رواية الإنجيل الإيبيونيتيين أن يسوع كان يجتمع بتلاميذه المختارين في بيت بطرس هذا تحديداً، وهنا أعلنهم رسله الاثني عشر^(١). ونحن يمكننا أن نفترض أن صيد الأسماك كان عملاً ثانوياً مساعداً بالنسبة لبطرس وأخيه، لأن الدخل في المدينة لم يكن كافياً. أما يوحنا ويعقوب فهما حسب الرواية سمّاكان بالوراثة: كان والدهما يصيد معهما. ويمكن أن تكون السهولة التي تخلى بها رفاق يسوع هؤلاء عن منازلهم، شاهداً يوحى بأنهم لم يكونوا مرتبطين بعمل زراعي أو بأي عمل ثابت آخر: إن مثل هؤلاء تحديداً كانوا على أهبة الاستعداد دوماً للإيمان بالخلاص من المعاناة والفقر، والاستمتاع بنعيم مملكة الإله. وتذكر الرواية متى جابي الإتاوات والضرائب، بين أتباع يسوع الأوائل. ولا نعتقد أن عشراً في تلك الأزمنة كان ينتمي إلى فئة الفقراء، بيد أن هذه المهنة كانت مهنة محترمة في المقاطعات كلها، وبخاصة في فلسطين، وترافق كره السكان لها بموقف معاد للرومان. ولكننا لا نستطيع أن نجزم بدرجة صحة المعلومات المتوفرة عن العمل الذي كان يمتنه متى، بيد أن المعروف في تصورات المسيحيين الأوائل، هو أن يسوع كان يستميل إلى جانبه على وجه التحديد، الناس الذين كان المجتمع يحتقرهم، والفقراء فقط. كما انضم إلى يسوع أحد الذين كانوا ينتمون إلى الزيلوتيين، ويبدو أن هذا كان قد فقد الإيمان بجدوى الكفاح المسلح بعد سقوط انتفاضة يهوذا الجليلي تحت ضربات جحافل الرومان. وكان موقف يسوع من النساء متميزاً بدوره: حسب الرواية أنه دخل منزل الأختين مرثى وماريا. وسمح لامرأة بغي أن تمسح قدميه بالطيب، وقال رداً على سخط اليهود المتعصبين: «لقد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبّت كثيراً» (لوقا)؛ وكان بين الذين أبرأهم يسوع وتبعوه، نسوة سرن معه حتى لحظة إعدامه.

لقد جاب يسوع مع حواربيه الذين تركوا عائلاتهم، مختلف أرجاء الجليل مبتعدين عن المدن الكبيرة؛ فلم يدخلوا يوماً طبريس أو سيفوريس، التي لم يرد لها ذكر في الأناجيل البتة. لقد كان النفور من المدن الكبيرة سمة تطبع موقف الفئات الدنيا من سكان الجليل بطابعها، وهذا ينسحب خاصة على المدن التي كانت مرتبطة بعهد هيرودوس أنتيبا الذي قتل يوحنا المعمدان. وإذا ما صدقنا الروايات المسيحية، فإن يسوع كان يعظ أساساً في المناطق الحدودية المتاخمة لحدود المدينتين الفينقيتين صور وصيدا (لكنه لم يدخلهما)، وفي إقليم المدن العشر الإغريقي، وكفرناحوم، والبلدات والقرى المجاورة. فمن تلك الأرجاء كانت تتقاطر إليه حشود المولعين بالتبشير بقرب قيام مملكة الإله على الأرض.

١- كان العدد ١٢ عدداً مقدساً عند اليهود، فهو عدد أسباطهم الاثني عشر.

وثمة كثير مما هو مشترك بين نشاط يسوع وعمل المعلمين الجوابين: الرأبي، الذين كانوا يعظون في الكنس، فيما أن مكان عبادة يهوه كان في معبد اورشليم فقط، لذلك كانت الكنس في فلسطين وخارجها، هي الأمكنة التي كان يجتمع فيها اليهود المؤمنون. وقد شيدوا مباني خاصة لمثل تلك الكنس، بيد أنه كان يمكن للمؤمنين الذين يقيمون في أماكن صغيرة، أن يجتمعوا في المنازل السكنية. وكانت الوظيفة الأساس للكنيس، هي التعليم الديني، فقد كانوا يقرؤون هناك الكتاب المقدس: الكتب الخمسة، وكتب الأنبياء، ويلقون المواعظ، ويطبقون الصلوات. وبما أن اللغة الآرامية كانت هي لغة التخاطب، فقد كان «التولماتش» يقف دائماً إلى جانب القارئ لكي يترجم ما يتلوه هذا من اللغة اليهودية القديمة إلى اللغة الآرامية (لذلك كان من الطبيعي أن يقرأ يسوع النصوص التوراتية ويتلوها بالآرامية). وكانت المواعظ هي أهم الأجزاء المكونة لكتاب صلوات اليهود، لأنها كانت تخلق جواً انفعالياً، وغالباً ما كانوا يسوقون فيها أمثلة ذات مغزى وعظي، وكانت هذه تكرر عادة للمسائل الاجتماعية والأخلاقية. لقد كان المثل يندرج في الفن الأدبي الفولكلوري الذي كان شائعاً في ذلك الزمن: حسب س. س. أفيرينتسيف أن المثل بيان تعبيري يستخدم لتوضيح المواعظ الأخلاقية مع شيء من التورية في بعض الأحيان^(١). وكان كثير من الدعاة ذوي التوجهات المعارضة يخطبون في الكنس والمنازل الخاصة. ووعظ يسوع بدوره في كنس ومنازل، بل في العراء أيضاً. وكان واضحاً أنه يحاول أن يتفادى الصدام مع السلطات، على الرغم من أنه هاجم الثروات الدنيوية والملكية الخاصة مهاجمة قاسية، وكان يمكن أن يؤثر موقفه هذا سخط الأثرياء وكبار مالكي الأراضي. ولكن في الأحوال كلها لا يقدم لنا التقليد المسيحي ولا التقليد المناهض للمسيحية ما يشير إلى أن يسوع كان زعيماً لجماعة متمردة، كما يرى بعض المؤرخين، بدءاً من كارل كاوتسكي الذي رأى أن يسوع كان يعد لهجوم على اورشليم. وفي العام ١٩٩٥ أعلن ج. كارمايكل موقفاً مماثلاً: لقد أكد هذا أن دعوة يسوع كانت في بادئ عهدا دعوة سلمية، ثم قرر بعد أن قطع مع يوحنا المعمدان وتلاميذه، أن يتحول إلى العمليات العسكرية إذ استولى على المعبد، الأمر الذي قدم لخصومه أساساً لاستصدار حكم ضده بالإعدام من السينديريون^(٢). ولكن وجود واحد من الزيلوتيين بين الاثني عشر حوارياً (كما جاء في إنجيل لوقا)، ووجود السيوف لدى الرسل لا يعد قرينة

١- أفيرينتسيف س. س. منابع الأدب المسيحي المبكر وتطوره تاريخ الأدب العالمي. موسكو، ١٩٨٣. ص ٥٠٧-٥٠٨.

٢- كاوتسكي ك. نشوء المسيحية. موسكو ١٩٩٠، ص ٣٣٨. قارن: كارمايكل ج. الكشف عن ظهور المسيحية. الرواية الزمنية. موسكو، ٢٠٠٢.

كافية على صلة يسوع بالزبوتيين، وسعيه للعصيان ومقاومة السلطات الرومانية، فالمشاركة في أي أعمال عنف تتناقض مع كل ما نعرفه عن مواظ يسوع. ولا توحى لنا الأخبار التي وصلت إلينا عن رفاق يسوع، بأنه كان ثمة أي تنظيم ينتمون إليه، وأكد يسوع في تعاليمه على وجوب ألا يكون بين تلاميذه تفاوت في المرتبة. فقد وضع العلاقات بينهم نقيضاً للسلطة السياسية، عندما «يسود أمراء الشعب عليهم.. ولكن مثل هذا لن يكون بينكم» (متى)؛ لقد سار مع يسوع كل من شاء أن يفعل. ضف إلى هذا أن أخبار يوسف فلافيوس والمؤرخين الرومان عن الانتفاضات التي كانت تقع في المقاطعات، لا تعطينا أي أساس للظن بأن الولاة كانوا يكتفون بإعدام زعيم المتمردين وحده.

غني عن البيان أنه يصعب كثيراً استعادة المحتوى الأول لمواظ يسوع؛ فلتحقيق ذلك يقارن الباحثون بين الروايات المسيحية المنعكسة في أناجيل العهد الجديد، مع تلك التي عكستها الأناجيل المبكرة غير المعترف بها (بما فيها مدونات خطب يسوع التي عثر عليها في مصر). ومن المعروف أن قرب نهاية هذا العالم وقيام مملكة الإله، كان من الأفكار الأساسية لدى يسوع («مملكة السماء» في إنجيل متى؛ و «مملكة السموات» في النص الإغريقي، أي مملكة الإله على الأرض)، ولذلك كرس كل جهد ممكن لإعداد الناس للحظة قيام تلك المملكة. وقد جاء في أقدم الأناجيل: إنجيل مرقس: «... ما من أحد ترك بيتاً، أو أخوة، أو أخوات، أو أباً، أو أمّاً، أو زوجة، أو أبناء، أو أرضاً من أجلي ومن أجل الإنجيل (= البشارة المباركة - المؤلفة)، إلا وحصل الآن، في هذا الزمان، في حمى الملاحقات، على مئة ضعف من المنازل، والأخوة، والأخوات، والآباء، والأمهات، والأبناء، والأراضي، والحياة الأبدية في الزمن الآتي». ويفهم من هذه الكلمات أن يسوع لم يدع إلى ترك الثروات فقط، بل إلى ترك الروابط العائلية كذلك، وهذا ما فعله هو وتلاميذه. ولكنه وعد في الوقت نفسه بمئة ضعف. فهل كان الوعد بإضعاف تلك النعم مجرد تورية للحياة الموعودة بعد يوم القيامة؟ ليس لدينا إجابة على هذا السؤال الشائك، بيد أنه كان يمكن لأتباعه أن يفهموا كلماته تلك بمعناها الحرة. فقد انعكس تصورهم عن كينونة المملكة الإلهية في مؤلف المدعو بابيوس (النصف الأول من القرن ٢م)، الذي قال إيرينوس (في مؤلفه: «ضد الهرطقات») إنه كتب «شرح الأقوال الربانية»، وكذلك في قصص الأخبار. وفي هذه القصص إنه سوف تثبت الأرض شجراً من الكرمة على كل منها عشرة آلاف جفنة، وعلى كل جفنة عشرة آلاف عنقود، وفي كل عنقود عشرة آلاف حبة، وحينما يأتي الطاهر النقي ليقطف جفنة، تتوسل إليه الأخرى أن يقطفها هي أيضاً لأنها أفضل من جارتها. وسوف تحمل سنبلة القمح كذلك

عشرة آلاف حبة، ويتوقف العداء بين الحيوانات، وتغذو كلها مطيعة صاغرة لإرادة البشر. ثم يتابع إيرينوس اقتباس نص بابيوس فيقول: «وعندما لم يصدق يهوذا الخائن وسأله كيف يخلق مثل هذا الفيض على النباتات، قال له الرب: هذا ما سوف يراه من يعيش في تلك الأزمنة (ضد الهرطقات). ومن الواضح طبعاً أنه ليس من الضروري أن تكون مثل هذه التصورات قد نشأت بالضرورة على أساس أقوال قالها يسوع فعلاً، إلا أنها تظهر أن مستمعيه قد آمنوا فعلاً بوعده بالمنة ضعف، وتحولوا في إطار أحلامهم بالبحبوحة المادية التي كانوا محرومين منها في عيشهم الحقيقي. وما ينبغي قوله، هو أن هذه القصة تنتمي إلى التقليد الشفهي، لأن بابيوس عمل على جمع ذكريات المسنين الذين استمعوا بأنفسهم مواعظ يسوع وتلاميذه.

لقد كان بلوغ المملكة الإلهية يتطلب نقاء روحياً وعزواً عن الخيرات المادية. ولذلك كانت كتابات المسيحيين الأوائل مليئة بهجمات معادية لكل ضروب الثروات المادية، وكررت الأناجيل هذا الموقف عينه. فقد جاء في إنجيل اليهود: «هناك كثرة من أخوتك، أبناء إبراهيم، تلوهم القذارة ويموتون جوعاً، وبيتك مليء بالخيرات، فلا يتحول إليه أي شيء جدير». أما التعبير الشهير: «.. أسهل أن يدخل الجمل عبر خرم الإبرة من أن يدخل غني مملكة الإله»، فقد ورد في هذا الإنجيل وفي الأناجيل القانونية (متى).

وربما كانت أقوال يسوع التي وردت في موعظة الجبل، تنتمي إلى ما صح من الأقوال المنسوبة إليه. وترد هذه الأقوال في إنجيلي متى، ولوقا، وفي إنجيل توما الذي اكتشف في مصر: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم مملكة السماء. طوبى للحرزاني لأنهم يعززون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش للحقيقة لأنهم يشبعون» (متى)؛ وعند لوقا: «طوبى لكم أيها المساكين^(١)، لأن لكم ملكوت الإله. طوبى لكم أيها الجياع الآن لأنكم سوف تشبعون. طوبى لكم أيها الباكون الآن، لأنكم سوف تفرحون» (لوقا). وفي إنجيل توما «قال يسوع: طوبى لكم أيها الفقراء، لأن لكم الملكوت السماوي.. وقال يسوع: طوبى لكم عندما يبغضونكم ويضطهدونكم. ولا يجدون مطارح هناك حيث يضطهدون.. وقال يسوع: طوبى للجوعى، لأن جوف من يطلب سوف يشبع». إن استخدام هذه الأقوال يبين أنها لم تكن بادئ ذي بدء تشكل قواماً واحداً لموعظة الجبل، ولكن ذاكرة التلاميذ نقلتها مع شيء من التنوع (وهو أمر معتاد بالنسبة للروايات الشفهية)، بصفتها أهم مكونات أقوال المعلم.

فلم يكن الفقر والتعاسة المرتبطان برفض المحيط، أساساً وحيداً للخلاص. ومع أن مجموعة من أتباع يسوع لم تعلن موقفاً مناهضاً لثوابت اليهودية الأرثوذكسية، كما فعل

١- في الترجمة القانونية أضيفت كلمة «بالروح»، أما في الأصل الإغريقي فلا وجود لها في إنجيل لوقا.

القمرانيون (لقد اعترف يسوع بمحكمة السيئندريون، وبضرورة تأدية المساهمات النقدية لخزنة المعبد)، إلا أن مواقفه التي أعلنها ضد الالتزام بشكليات الطقوس وتفاصيلها، كانت لها أهمية كبيرة. وقد تميزت مواظمة على وجه الخصوص بالتأكيد على ضرورة النقاء الروحي لا الفيزيولوجي. وانعكس هذا الموقف بجلاء خاص في إنجيل مجهول عثر عليه في مصر (بردية يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن ٢م)^(١). فقد قال يسوع للكاهن الذي لأمه وتلاميذه على دخولهم حرم المعبد من غير أن يغتسلوا: «أنت اغتسلت بالماء الراكد الذي تستلقي الكلاب والخنازير فيه ليل نهار.. أما أنا وتلاميذي الذين قلت عنا إننا نجسون، فقد اغتسلنا بالماء الحي الذي يسكب من (السماوات)....». ولا يحتوي القانون على المشاهد المرتبطة بشعيرة التطهر لدى دخول المعبد، بل ليس ثمة ما يؤكد على هذه الشعيرة (أو يحضنها) في المصادر الأخرى. فيوسف فلافيوس يتحدث في «الحرب اليهودية» عن ضرورة التطهر قبيل دخول المعبد، لكنه لا يحدد هذا الطقس. ونحن نقف في إنجيلي مرقس ومتى على مغزى فكري مواز لهذا المقطع، لكنه ليس واضحاً بما يكفي: لأم الفريسيون تلاميذ يسوع لأنهم لا يغسلون أيديهم إذ يقبلون على أكل الخبز (متى - مرقس)؛ لكن هذا لم يستند إلى الكتاب المقدس، بل إلى العادة)، وفي رده على ذلك وبخ يسوع الفريسيين على مرأاهم. وكذا كان موقفه حيال الصوم الذي كان يلتزم به الفريسيون وتلاميذ يوحنا المعمدان: «.. لا يندس الإنسان ما يدخل إليه من الخارج، بل ما يخرج منه يجعله نجساً» (إذا كان هذا القول لا يعكس حقيقة كلمات يسوع، فإنه يعكس بالتأكيد روح دعوته - مرقس؛ انظر أيضاً متى). والحقيقة أن موعظة الجبل تحدثت عن الصوم، لكنها لم تتحدث عن ضرورته، بل عن الصوم في السر بحيث لا يظهر الصائم صائماً أمام الناس، إنما «أمام الرب السماوي» (متى). ويبدو أنه من الصعب علينا أن نحدد الموقف الذي يعكس حقيقة موقف يسوع في هذا الشأن، لأن كل إنجيل يعكس فهم تلك الجماعات المسيحية التي وضع في أوساطها.

كما لم يكن موقف يسوع وأتباعه الأوائل متماثلاً تجاه مسألة تحريم القيام بأي عمل يوم السبت؛ وعلى أغلب الظن أن الإنجيليين قد رأوا تبعاً ليسوع، أنه يجوز تأدية أعمال خير في يوم السبت: «إذا كان لأحدكم معزة واحدة ووقعت يوم السبت في الحفرة ألا يرفعها من هناك؟ أو ليس الإنسان أفضل من المعزة بكثير!» (متى)؛ وما يلفت الانتباه أن المثل أخذ هنا من حياة الفقراء). بيد أنه من الواضح أن نكران السبت لم يكن موقفاً حاسماً، كما فعل بولس فيما بعد. ونحن فيما نرى أن الموقف البدئي لأتباع يسوع (وربما موقفه هو نفسه أيضاً)، قد

١- انظر ترجمة هذا الإنجيل لدى سفينتسيكيا ١: الأناجيل المنحولة، ص ٥٨.

انعكس في مقطع من إنجيل لوقا لم يدخل الصيغة النهائية لنص هذا الإنجيل القانوني: «في اليوم عينه رأى إنساناً يعمل في السبت، فقال له: أيها الإنسان إذا كنت تعرف ما الذي تفعله، فأنت مبارك، أما إذا كنت لا تعرف فأنت ملعون لأنك تخالف الناموس» (لوقا Codex D). ويتلخص مغزى هذا المقطع في أنه إذا كان هذا الرجل ينتهك تحريم العمل يوم السبت عن وعي لتحقيق أغراض خيرة فرضتها الضرورة (ومرة أخرى يكون التواصل مع فقراء)، فإنه رجل مبارك، ولكنه إذا كان لا يعرف الشريعة أو لا يريد أن يعرفها، وينتهكها دون تفكير، فإنه رجل ملعون، بمعنى آخر أن الالتزام بمتطلبات اليهودية ليس مهماً بحد ذاته، إنما المهم هو الأهداف التي من أجل بلوغها يجري الانتهاك أو الالتزام. وينتمي المقطع الذي سقناه هنا إلى المخطوط الأول المبكر لإنجيل لوقا، لكنهم استشهوا أثناء تقنين الإنجيل، لأن غالبية المسيحيين كانت قد كفت عن الالتزام بالسبت.

ولكن النواة الأهم في المعايير الأخلاقية التي بشر بها يسوع، هي متطلبات الحد الأقصى التي اجتمعت في موعظة الجبل «.. لا تقاوموا الشر بالشر.. أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا إلى مبغضيتكم، وصلّوا من أجل الذين يسيؤون إليكم ويضطهدونكم» (متى). إن هذه المتطلبات التي لا يجري التقيد بها من حيث جوهر الأمر، هي التي ميزت تلاميذ يسوع عن باقي جماعات المجتمع اليهودي الأخرى في ذلك الزمن.

وانعكس تبشير يسوع بالرحمة ونبذ جملة من التقاليد القديمة، في المشهد الشهير مع الزانية، وهو المشهد الذي وصفه لنا إنجيل يوحنا لقد جاؤوا إليه بامرأة شوهدت وهي تزني، وحسب الناموس كان يجب أن ترحم. ولما ألحوا على يسوع بالسؤال عما ينبغي فعله تجاهها، أجاب بجملة واحدة طارت مثلاً: «من منكم بلا خطيئة، فليتقدم أولاً ويرمها بحجر». فتفرق الحشد الذي اتهمها، أما يسوع فقد دعا المرأة إلى أن تتوقف عن ارتكاب المعاصي. بيد أن هذا المشهد لا يترك انطباعاً بالأصالة، إذ من المشكوك فيه أن يمثل الحشد الذي كان القضاة والمرعون قد حرضوه، لقول يسوع. ضف إلى هذا أنه ثمة لدى يوحنا في إنجيله كثرة من المشاهد التي تحمل طابعاً رمزياً وليتورجياً، إلا أن مغزى القصة ليس فقط في أن القضاة أنفسهم يجب أن يكونوا بلا خطيئة، إنما أيضاً في مناهضة يسوع الخفية لهمجية طريقة الإعدام رجماً. ولا يتوفر لنا حتى الآن ما يفيد بما إذا كان يسوع قد أدى أي طقوس كانت، وليس هناك معطيات تفيد بأن تلاميذه تلقوا المعمودية. فيوحنا يقول في إنجيله، إن يسوع عاش مع التلاميذ وكان يعمّد، ويخبر في مكان آخر، إنه لم يكن هو نفسه يعمّد، بل تلاميذه الذين كانوا يفعلون ذلك. ولكن ربما يكون التقليد المتأخر هو المعكوس هنا، ويبدو أن مؤلف الإنجيل الرابع لم يكن يؤمن به.

وفي جانب آخر، ثمة إيهام يحيط بموقف يسوع وأتباعه الأوائل تجاه التبشير في الأوساط اليهودية. وللوهلة الأولى ينشأ انطباع بأن البشارة كانت مكرسة لليهود فقط. «إنما جئت فقط من أجل الخراف الضالة في بيت إسرائيل» (متى). ولكنه حسب الرواية الإنجيلية، كان في غضون ذلك يشفي أبناء الوثنيات الأخرى ويدعوهم إليه: شفى خادم قائد المئة الروماني في كفرناحوم (لوقا)، وابنة امرأة سورية - فينيقية دعاها إنجيل مرقس هليلنية (وفي الترجمة القانونية: وثنية، مرقس)؛ وتخطب حسب إنجيل يوحنا مع امرأة سامرية، وكان اليهود الأصوليون يتجنبون هؤلاء (يوحنا). ومن الواضح أن سلوك يسوع هذا إنما يعكس تراجعاً عن الالتزام بالتقاليد اليهودية الصارمة من أجل تحقيق أغراض خيرة، والسعي إلى الانفتاح بتعاليمه على كل من آمن به. وبما أن ظهور مثل هؤلاء الناس يتوافق والواقع الذي كان قائماً في الإقليم الذي كان يسوع يبشر فيه بتعاليمه، إذ كان يقيم خليط من السكان (خاصة ضواحي المدن الفينيقية التي كانت تتمتع بالحقوق الإغريقية)، لذلك يمكننا أن نظن بأن المشاهد المعنية تنتمي فعلاً إلى أحداث واقعية حافظت عليها بحرص ذاكرة الرسل الذين بشروا فيما بعد بالمسيحية خارج فلسطين.

لقد توافقت مواعظ يسوع بمعجزات شفاء: تقول الروايات الإنجيلية إنه شفى مسكونين بأرواح شريرة، ومكفوفين، ومصابين بالبرص، وأعاد إلى الحياة فتاة صغيرة كانت قد توفت لتوها، وكان قد قال: «الفتاة لم تمت إنما نامت» (مرقس). وكان بطرس يقصد الشفاء بالتحديد عندما أكد في أعمال الرسل، لدى حديثه عن يسوع: «... مثلما مسح الرب يسوع الناصري بالروح القدس ومنحه القوة، فمضى يبارك الجموع ويشفي المسكونين بابلوس، لأن الإله كان معه» (أعمال الرسل). ويؤكد علم الطب حقيقة المداواة القائمة على الإيمان والإيحاء. فثمة فرق بين الأمراض التي يتسبب بها خلل فيزيائي جدي، وبين الشعور بالمرض، الخوف منه: وهذه الأمراض الأخيرة، هي التي تعالج نفسياً، وبالنسبة للأزمة القديمة، حيث السيادة للمعتقدات الخرافية والكل مهياً للإيمان بالمعجزة، كان مثل هذا العلاج شائعاً على وجه الخصوص، وينسحب أول ما ينسحب على من كانوا يدعون مسكونين ويعيشون حالة غيبوبة. ويتضح من الأناجيل نفسها إن الإيمان كان الضرورة التي لا غنى عنها من أجل شفاء المريض؛ حينما جاء يسوع إلى الناصرة، حيث كان كلهم يعرفه منذ كان طفلاً، لم يستطيع حسب مرقس «أن يصنع هناك أي معجزة، فوضع يده على بعض المرضى وشفاهم. وتعجب لعدم إيمانهم».. (مرقس).

من كان يسوع يرى نفسه؟ إنه السؤال الذي لا نقف على إجابة له في المصادر المكتوبة. فإذا عدنا إلى الأناجيل فإنه يصعب كثيراً أن نفصل بين رؤية أنصاره التي نشأت لديهم عنه

بعد حدث الصلب، وبين أقوال يسوع الحقيقية. لقد دعاه التلاميذ رابي، أي معلماً، ويستفاد من كلمات بطرس التي سقناها أعلاه، أنهم أقروا بأنه هو مسيح الرب، أي المسيا؛ كما كان الحشد الذي تبعه يرى فيه مسيا أيضاً، لأن حالة التوتر التي كان يعيشها من كانوا بانتظار المخلص، كانت تسم بطابعها السيكولوجيا الاجتماعية عامة، مع أن يسوع لم يدع يوماً أنه المخلص. ولا ريب في أنه كان يحس بصلة مع الإله: الأب السماوي، بيد أنه في الأحوال كلها وحسب تصور التلاميذ، لم يدغم نفسه به، فعندما طلب إليه ابنا زبدي أن يجلسهما في مملكته عن يمينه وعن شماله، أجابهما يسوع قائلاً: «ليس الأمر متعلقاً بي أن أجلس عن يميني وعن شمالي، إنما المكان لمن أعده أبي» (متى: لاحظ مرقس). أما تعبير «ابن الإنسان» الذي لم يستخدمه سوى يسوع، فإنه يمثل مسألة عويصة حقاً. ومن المعروف أن هذا التعبير يتكرر كثيراً على لسان يسوع في الأناجيل القانونية وحدها فقط. وترقى صورة هذه الشخصية إلى سفر النبي دانيال، حيث تنبأ بنهاية العالم وظهور ابن الإنسان: «لقد رأيت في رؤاي الليلية كأن ابن الإنسان يخرج من السحب السماوية». (دانيال)^(١). ويستخدم تعبير «ابن الإنسان» في أناجيل العهد الجديد في صيغة الغائب كقاعدة، وليس واضحاً دائماً ما إذا كان يسوع يتحدث عن نفسه، أم أن أحداً آخر هو الذي سوف يأتي في يوم القيامة وقيام مملكة الإله. فهو يقول مثلاً: «الحق أقول لكم، إن بعض الحاضرين هنا، لن يذوقوا الموت قبل أن يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته» (متى). إن الأناجيل تقدم الإمكانية لهذا التأويل وذلك، ولكنه من الصعب أن نحدد^(٢) أي الأقوال يعود إلى يسوع نفسه، وأياها أدخله مؤلفو الأناجيل، التي لم توضع إلا بعد انصرام عشرات السنين. وفي الأحوال كلها فإن عداء الفريسيين والكهنة كان يمكن أن يكون مرده إلى الإيمان بمسيانيته في المقام الأول.

وليس معروفاً كذلك كم من الزمن دام العمل التبشيري الذي قام به يسوع. فحسب الأناجيل القانونية الثلاثة الأولى، أن نشاطه دام عاماً واحداً فقط، أما وفق إنجيل يوحنا فقد دام ثلاث سنوات (يأخذ أكثر الباحثين بمعطيات الأناجيل الثلاثة الأولى لاستعادة صورة الأحداث الحقيقية في حياة يسوع، وهذه الأناجيل متشابهة من حيث مادتها تشابهاً دعا

١- إن تعبير «ابن الإنسان» حاضر في المزامير التوراتية «ما الإنسان حتى تذكره؟ وابن البشر حتى تقتدده؟» ويبدو هذا التعبير في سياق المزمور كأنه يعمم الجنس البشري.

٢- يفترض بعض الباحثين أن «ابن الإنسان» هو شخصية أخروية منتظرة في «آخر الأزمنة»، وربما لم تدغم في بادئ الأمر بيسوع، ثم وقع الإدغام بعد صلب يسوع نتيجة لانتظار مجيئه الثاني. انظر على سبيل المثال:

Edwards R.A.A. Atheology of Qphladelphia 1976, A 36.

المتخصصين إلى تسميتها بالأناجيل السينوبتية، أي التي لها وجهة نظر مشتركة). وكان مجيء يسوع إلى أورشليم لحظة مفصلية في مسيرة عمله التبشيري. فما الذي أثار سخط الأوساط العليا للكهنة اليهودي وشيوخ اليهود عليه، وحذرهم منه؟ إنه على أرجح تقدير قول واحد من أقواله وفعل من واحد من أفعاله. فالأناجيل الأربعة تنقل إلينا خبر مجيئه إلى المعبد وطرد الباعة والصيارفة منه (متى؛ مرقس؛ لوقا؛ يوحنا). ويرى أكثر الباحثين أن هذا المشهد كان حدثاً واقعياً، بل ثمة من رأى فيه استيلاء مسلحاً على المعبد (كارمايكل على سبيل المثال)، وهو أمر له نصيب ضعيف من الصحة، لأنه لو كان كذلك فعلاً لتدخل الرومان في الأمر دون تأخير. وعلى أغلب الظن أن الأمر كله لم يتعد حدود الحركة المسرحية الرمزية التي لم تستمر لأكثر من لحظات قصيرة، بيد أن الفعل بحد ذاته كان يجب أن يثير انطباعاً قوياً: كان الباعة يبيعون طيور التقدّمات. ولم يكتف يسوع بموقفه المناهض للتجارة التي دنست المعبد، بيت الصلاة، بل تعدى الأمر ذلك ليطال من حيث الجوهر طقس تقديم القرابين نفسه، أضف إلى هذا كله القول الذي نسب إليه: إنه يستطيع أن يهدم المعبد ويعيد بناءه في ثلاثة أيام (متى؛ حسب مرقس أن المعبد ليس مصنوعاً بالأيدي)، مع أنه قصد بذلك إلى معبد الإيمان الحق. أما رد فعل الحشد الذي اجتمع في أورشليم عشية الفصح ليستمع إلى تعاليم يسوع ويرى مداواته، فلم يترك بدوره أثراً طيباً لدى قادة اليهود الذين كانوا يخشون الاضطرابات الجماهيرية ورد فعل الرومان تجاهها في المقام الأول، فإلى أورشليم كانت تتقاطر قبيل الفصح حشود من مختلف أرجاء فلسطين، ومن مختلف شرائح المجتمع، وكان هؤلاء كلهم شديدي الحماس ومتعطشين للمعجزة وظهور المسيا. ولذلك ألقى القبض على يسوع عشية الفصح بوشاية من تلميذه يهوذا الإسخريوطي الذي كان خازن أموال جماعة أتباع يسوع. وشخصية يهوذا هذا شخصية غامضة. وحتى لقبه ليس واضحاً، فكتابته بالإغريقية تنويعاتها محدودة، وله فيها جملة من التفاسير: إسخريوطي لقب مأخوذ من كلمة كريات (كريات)؛ ومن الصيغة المحرفة لكلمة «سيكاري»، أي الذي ينتمي إلى جماعة السيكارين، أكثر فرق الزيلوتين تطرفاً. ولا تزال الظروف التي أحاطت باعتقال يسوع غير واضحة ومبهمّة في الروايات المسيحية. فحسب ما ترويه الأناجيل (حتى غير القانونية منها)، أن يسوع أقام مع تلاميذه وليمة، ولكن إذا ما كانت هذه الوليمة وليمة الفصح، فإنها لا تتوافق والتقويم اليهودي. ولذلك يرى بعض الباحثين أن يسوع وتلاميذه قد استخدموا تقويم القمريين؛ بينما يرى آخرون أنها كانت مجرد وليمة مشتركة عادية، ثم جعلها التقليد اللاحق، العشاء السري المقدس وربط بينها وبين الفصح. ولكن من غير الواضح لماذا كان

رؤساء الكهنة مضطرين إلى شراء يهوذا. قد تكون هذه الخرافة قد اختلقت على أيدي تلاميذ يسوع بعد إعدامه؟ لكن الحديث عن فعل الخيانة الذي ارتكبه الإسخريوطي لا يقتصر على الرواية المسيحية، بل قالت به الرواية اليهودية أيضاً: نقلها سيلس. وثمة كثرة كثيرة من الفرضيات عن أسباب تلك الخيانة. فلوفا الذي عجز على ما يبدو عن إيجاد تفسير منطقي لتصرف الإسخريوطي، عزى السبب إلى إغواء الشيطان. وهذه هي الرؤية اللاهوتية: لكي يتم ما قيل بالأنبياء؛ أما الرؤية الزمنية الدنيوية، فقد عزت السبب إلى الأنانية، والجشع، والعمل على دفع يسوع نحو الفعل. وزعم كارمايكل أن يهوذا كشف عن الملجأ الذي يختبئ فيه يسوع و...، بيد أن هذه الفرضيات تفتقر كلها إلى سند توفره الوقائع. وربما بسبب حصول عملية الاعتقال ليلاً، كان على يهوذا أن يشير إلى يسوع بالضبط كي لا يقع خلط بينه وبين أحد التلاميذ.



أورشليم زمن يسوع المسيح. تصميم.

وتقول رواية الأناجيل القانونية، إن يسوع أدين في محكمة السينديريون أولاً، ثم بعد ذلك حكم عليه بيلاطس البنطي بالإعدام المشين صلباً. فلم يكن يجري تنفيذ الإعدام صلباً إلا بالعبيد، وقطاع الطرق، والعصاة والخارجين على القانون عموماً. وكان من صلاحيات السينديريون أن يحكم بالإعدام رجماً إذا كانت الجريمة ذات طابع ديني، ولكن يسوع سيق إلى بيلاطس ليحاكم محاكمة رسمية وينفذ حكم الإعدام فيه بأكثر الطرق انحطاطاً: الصلب. ولكن وصف محاكمة بيلاطس ليسوع لا يركز إلى صحته، أما شخصية القاضي

بيلاطس فإنها لا تتوافق مع الشخصية التاريخية الواقعية لهذا الرجل. إذ من المعروف أن بيلاطس البنطي كان يتميز بقسوته المفرطة. فعندما تجمع مرة في السامرة حشد من الناس



نقش بيلاطس البنطي من القيصرية (عين طيباريوس)
بيلاطس البنطي حاكماً على سكان القيصرية

حول أحد الدعاة، أمر بيلاطس فرقة فرسانه أن تطأ الحشد بسنابك الخيل. ونتيجة لتزايد شكاوى الناس من بطشه وظلمه اضطر الإمبراطور طيباريوس إلى استدعائه وعزله من منصبه. ونقل يوسف فلافيوس حسب رواية أغابيوس، وكذلك نقل تاسيت أن بيلاطس البنطي هو من أعدم يسوع. ولكن الأناجيل القانونية تتقل في غضون ذلك صورة مغايرة: رؤساء الكهنة والشيوخ يطلبون إعدام يسوع، بينما يحاول بيلاطس إنقاذه، والحشد يصرخ: «دمه علينا وعلى ذريتنا». وحسب فريق من الباحثين أن ناسخاً ما، أضاف هذا القول في أثناء حمى الخلاف مع اليهود إثر دمار

أورشليم في أواخر القرن ١ م؛ ثم أخذ هذا يغذي التعصب الديني المسيحي فيما بعد، الأمر الذي أدى إلى سقوط أعداد لا حصر لها من الضحايا^(١).

وتقول الرواية، إنه عندما عرض بيلاطس إطلاق سراح يسوع، وفق العادة التي كانت متبعة في الفصح، اختار الحشد أن يطلق باراس اللص المتمرّد. ولكن بيلاطس لم يكن يحب أن يترك للحشد العنان، فما بالك بمناقشة قراراته علانية، وتلبية مطلب الغوغاء. ومع أن يسوع لم يكن شخصية خطيرة بالنسبة له، بيد أن مطالبه بالمسيانية، أي إنشاء مملكة يهودية مستقلة (من وجهة نظر الرومان)، وسعي بيلاطس لاستعادة النظام، إضافة إلى خشيته من السلطة المركزية، هذا كله دفع به إلى الحكم على يسوع بالموت (تقول الرواية الإنجيلية: إنه غسل يديه ويراً نفسه من دمه). وعلى أي نحن لا نستطيع أن ننفي إمكانية أن يكون إعدام

١- في اجتماع السينودوس الفاتيكانية الثاني، أسقطت الكنيسة الكاثوليكية إثم صلب يسوع عن اليهود، لأن إلامه وصلبه كانت مقدرة من فوق بصفته ذبيحة لمغفرة خطايا البشر كلهم.

يسوع نتيجة مؤامرة بين رئيس الكهنة اليهود قيافا وبيلاطس البنطي؛ لأن السينديريون حسب ما يؤكد يوسف فلافيوس، لم يكن يحق له أن يعقد اجتماعاً إلا بموافقة القاضي الروماني (بيلاطس). ويبدو وصف حدث الصلب الذي جاء في إنجيل بطرس، وهو إنجيل غير قانوني، يبدو أكثر توافقاً مع واقع الأشياء. وكان قد عثر على مقطع منه في مصر: يحاكم يسوع أمام السينديريون وهيروودوس أنتيبا (يتوافق هذا مع منشأ يسوع الجليلي)، وتجري المحاكمة في غضون ذلك في مقر الحاكم الروماني. وهنا أيضاً يغسل بيلاطس يديه ويحيل البت في أمر يسوع لا إلى الحشد، بل لمحكمة خاصة. وكان هيروودوس بالذات من اقترح صلب يسوع، وهو ما نفذ به بيلاطس بلا مبالاة^(١): من غير تصديقه على الحكم لم يكن تنفيذه ممكناً. وحسب هذا الإنجيل عينه، إنه بعد إعدام يسوع «تمرر الشعب وأخذ يضرب صدره»، وأسرع شيوخ اليهود إلى بيلاطس يطلبون منه أن يضع حرساً على القبر «لكي لا يأتي تلاميذه ليلاً ويسرقوه بطريقة ما فيصدق الشعب أنه قام من الأموات، ولم يتسبب لنا بأذى». وثمة في إنجيل متى مقطع مشابه، ولكن تغيب عنه فكرة الخوف من الشعب (متى). لقد ظهرت فرضية سرقة جثمان يسوع إثر شيوع قصص المسيحيين عن قيامته مباشرة: لقد كان كثير من المؤمنين اليهود يؤمن بإمكانية القيامة من الموت، ولكن في الزمن البعيد الآتي، بعد نهاية العالم، وليس قيامة شخص واحد الآن هنا، ولذلك فإنه من غير المحتمل أن يكون شيوخ اليهود قد طرحوا مثل هذه الفرضية إلا بعد أن وجدوا القبر فارغاً. وفي إنجيل لوقا أن بيلاطس حاول أن يحيل أمر يسوع إلى هيروودوس، لكن هيروودوس أنتيبا أعاده إليه بعد أن هزئ به بعض الوقت. ويذكر هيروودوس الأول بين القضاة في أعمال الرسل لقد قام ضد يسوع «هيروودوس، وبيلاطس البنطي، والوثيون، وشعب إسرائيل». ولكن المصادر الأخرى لا تشير إلى مشاركة اليهود في المسألة، ولذلك ربما كان المقصود هنا هم الموظفون والجنود الرومان. وعلى هذا النحو يمكننا أن نزعّم بوجود فرضية مشاركة هيروودوس أنتيبا بمحاكمة يسوع، وهذا ما يمكن القبول به أكثر من فرضية ضغط الحشد على بيلاطس. لقد كان الجنود الرومان هم الذين نفذوا قرار صلب يسوع، وهم الذين سخرؤا منه قبيل إعدامه. ولدى صلب يسوع أمر بيلاطس أن يكتب على الصليب ما يحدد الذنب الذي من أجله أعدم، فكتبوا: «ملك اليهود (مرقس)». وبذا يكون بيلاطس قد أعطى عملية الإعدام طابعاً سياسياً.

١- ليس في هذا الوصف حشد يصرخ مطالباً بالصلب، وهو الأقرب إلى الواقع. وليس في المصادر الأخرى حديث عن تقليد إطلاق مجرمين في الفصح. وهو تقليد لا يتوافق على أي حال مع سلوك الحكام المحليين الرومان.

أما كيقية حدوث فعل الصليب نفسه ، فإنها لا تزال غير واضحة تمام الوضوح: يتحدث يوحنا في إنجيله عن مسامير؛ وتحدث أعمال الرسل عن تعليقه على خشبة. وفي العقود الأخيرة أسفرت أعمال البحث الأثاري عن اكتشاف عظام شاب^(١) دق في رسغه مسمار (يرجع تاريخ هذه



نسخة كاحل يخرقه مسمار

العظام إلى حوالي القرن ا.ق.م)، ومعنى ذلك أنهم كانوا يثبتون القدمين بالمسامير فعلاً، ولكن هل كانوا يثبتون اليدين بها أيضاً؟ نحن لا نعرف، إذ ربما كانوا يربطونهما ربطاً (ومن تعبير: علق على خشبة). وحتى الكلمات الأخيرة التي نطق بها يسوع لحظة صلبه، نقلها الكتاب مختلفة: الرواية الأكثر دقة، هي تلك التي ساقها مرقس ومثى: «إلهي، إلهي! لماذا

تركتني؟» (مرقس؛ مثى)، فقد أورد الإنجيليان هذه الكلمات بالآرامية ثم ترجمهاها إلى الإغريقية. ويبدو على أرجح تقدير أنها الكلمات الحقيقية التي كانت آخر ما نطق به يسوع، ولذلك تناقلتها الألسن عبر تلاميذ يسوع. ومهما يكن من أمر فقد كانت تلك كلمات مأخوذة من مزمور توراتي نطق بها يسوع بلغته الأم: اللغة الآرامية بلهجتها الجليلية: حتى ظن الواقفون على مقربة منه أنه ينادي النبي إيليا.. وما يلفت الانتباه أن يسوع لم يستخدم في لحظة الآلام الجسدية تعبير: يا أبي، بل استخدم التعبير اليهودي التقليدي: يا إلهي (في صلاة الكأس التي رفعها يسوع في بستان جثسيماني استخدم حسب مرقس كلمة يا أبي. مرقس).

لقد كانوا يدفعون الخارجين عن القانون، والثائرين في مقابر جماعية، وقد يكون هذا هو سبب عدم العثور الآثاريين حتى الآن على قرينة واحدة تدل على الإعدام صلباً. وعليه فقد رأى بعض الباحثين الأكثر راديكالية، أن قصة قبر يسوع، هي نتاج مخيلة تلاميذه الذين كانوا على يقين بأن يسوع قد دفن فعلاً ثم قام من الموت. بيد أننا نعرف وفق شهادة فيلون الإسكندري أن بعض الحكام الرومان المحليين كانوا يجيزون لعائلة المعدم دفنه. وحسب الرواية المسيحية أن يوسف الرامي، أحد أعضاء السينديريون قد قدم مثل هذا الالتماس لبيلاطس. وفي العهد الجديد أن يوسف طلب الأذن بدفن يسوع بعد أن تمت عملية الصليب، ولكن في العام ١٩٧٢م نشرت بعض المقاطع الإنجيلية (Oxyrinchus papyrus 2949)، حيث ورد فيها وصف طلب يوسف الرامي هذا من بيلاطس، ولكن خلافاً لرواية أناجيل العهد الجديد، جاء طلب الرامي

١- كان اليهود عادة يحفظون عظام الأموات في صندوق خاص، وهذه هي المادة التي يدرسها علماء الآثار.

الإذن بدفن يسوع هنا ، قبل الإعدام وليس بعده ، وهو ما يتوافق مع ما جاء في إنجيل بطرس. ويبدو مثل هذا التسلسل أقرب إلى منطق الأشياء: كان على بيلاطس أن يقرر السماح بالدفن قبل الإعدام وليس بعده. وهكذا دفن يسوع وفق الطقس اليهودي في قبر (وليس في نعش كما في الترجمة القانونية) ، كان يوسف الرامي قد حفره لنفسه في صخرة.

وبعد أن صلب يسوع كان الإيمان وحده بقيامته يمكن أن يبقى على تماسك تلاميذه الذين أفقدتهم الفاجعة صوابهم. وليس أدل على ضياعهم وخوفهم من الحكاية التي تروى عن نكران بطرس لمعلمه. وإذا ما حاكمنا الأمور وفق الأناجيل الأربعة ، فإن أيّاً من التلاميذ لم يكن حاضراً لحظة الصلب ، بينما شهدته النسوة اللواتي تبعن يسوع من الجليل ، وقد ذكر مرقس أسماءهن كلهن ، إذ كن يرقبن صلب يسوع من بعيد (والحقيقة أنه جاء في إنجيل يوحنا ، أن التلميذ الذي كان يسوع يحبه كان عند الصليب وهو من أطلق عليه التقليد فيما بعد اسم يوحنا الإنجيلي ، ولكن هل سمح له الحراس الرومان بالاقتراب من الصليب مباشرة؟).

وفي جو يلفه الضياع والحزن تتالى ظهور يسوع لتلاميذه ، وكان ذلك هو العامل الوحيد الذي يمكن أن ينتشلهم من هوة اليأس ، وقد تحدثت الأناجيل القانونية عن ظهور يسوع مرات. ففي إنجيل لوقا قابله اثنان من التلاميذ في الطريق ، ولم يعرفاه إلا بعد أن ناولهما الخبز ، لكنه ما لبث أن اختفى. ولما رجعا عرفا من الرسل أن يسوع قد ظهر لبطرس ، ثم ظهر بعد ذلك للأحد عشر رسولاً وتناول معهم طعام العشاء (لوقا). وفي إنجيل مرقس أن يسوع ظهر لماريا المجدلية أولاً (مرقس) ؛ وأعطى إنجيل يوحنا وصفاً مفصلاً لهذا الظهور الأخير: لقد قال يسوع للمجدلية: «لا تلمسيني»؛ ويسوق يوحنا أيضاً قصة توما الذي لم يؤمن بقيامة يسوع إلا بعد أن وضع إصبعه في جرحه (يوحنا). أما في إنجيل اليهود فقد ظهر يسوع أول ما ظهر لأخيه يعقوب التقي.

لم يكن الإيمان بالقيامة ، ولم تكن رؤى النشوة الدينية لظهورات يسوع لمختلف أتباعه ، أضف إلى هذا اليقين بقرب مجيئه الثاني ، لم تكن كلها حالة استثنائية ، بل كان ذلك كله يتوافق مع يقين القمرائين بالظهور المنتظر لقيامة معلم الحق. بيد أن الإيمان بقيامة يسوع ، وعدّ صلبه المشين ذبيحة لمغفرة الخطايا ، واليقين بأن المؤمنين حقاً سوف ينجون من الموت ، بات هذا كله القاعدة التي استندت إليها الدعوة المسيحية في شتى أرجاء الإمبراطورية.